ريجيس دوبريه

1.5.2017

المفكر في مواجهة القبائل

ريجيس دوبريه

المفكر في مواجهة القبائل

ترجمة: الدكتور غازي برو

دار الفارابي

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المفكر في مواجهة القبائل

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الكتاب: المفكر في مواجهة القبائل
المؤلف: ريجيس دوبريه
المترجم: د. غازي برو
الغلاف: فارس غصوب
الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: ٣٠١٤٦١ (٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥ (٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: شباط ٢٠١٥
ISBN:978-614-432-353-3

© **جميع الحقوق محفوظة**
تباع النسخة الكترونيا عبر موقع الدار:
www.dar-alfarabi.com

***

العنوان بلغة الأصل الفرنسية
L'INTELLECTUEL FACE AUX TRIBUS
de

Régis Debray

© 2008 CNRS ÉDITIONS ISBN : 978-2-271-06772-2

Traduit en arabe par Ghazi Berro

[متابعة ترجمة الكتاب وإنتاجه: محترَف القول الجريء بإدارة غازي برّو
بيروت موبايل: 70216140 / Atelier.oser.dire1@gmail.com]

Réalisation et traduction de l'ouvrage : Atelier oser dire dirigé par Ghazi Berro

Atelier Oser Dire
AOD

Cet ouvrage, publié dans le cadre du Programme d'Aide à la Publication Georges SCHEHADE, bénéficie du soutien du Ministère des Affaires étrangères et du Développement international, et du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade de France au Liban.

Twitter: @ketab_n

عرفت سمير قصير في فرنسا، خلال واحـدة من رحلاته بصحبة زوجته، جيزيل خوري، ترافقهما جيزيل حليمي، وهذا لا يعتبر كافياً حتى أُعدّ من بين المقربين إليه، ولكنه كافٍ كي تحدوني الرغبة في أن أقرأه مجدداً وأصبح من مريديه وإن ارتجاعياً. ولئن دبت فيّ الجرأة لاستحضار شخصيته في يوميات رحلاتي بعنوان «رجل بريء في الأرض المقدسة[1]»، فذلك لكونه بدا لي مثالًا جديراً بالاقتداء. إن التقاء شخصية مميزة وثقافة عظيمة في إنسان واحد لأمر أندر مما يظن المرء، ولا جدال في قولنا هذا لشدة ما كان الفيلسوف آلان (Alain) مصيباً عندما قال: «جانب الذكاء لدى كل إنسان ينزع نحو الخيانة».

---

(١) Un candide en terre Sainte

Twitter: @ketab_n

لنقل بعبارة أخرى إنه يميل إلى تبديل أفكاره تبعاً للحدث، والسير مع التيار، وباختصار أن يعود أدراجه. ولكن في ما يتعدى هذا التلازم غير الشائع، والذي امتاز به هو وحده، يتضح أن ثمة صعوبة كينونة تخللت مسار حياته العامة، صعوبة نشاطره إيّاها، وإن كان هو تحملها إلى أقصى درجاتها المعمدة بالدم. وأشير هنا إلى ما عاناه، من خارج لعبة النجاح الدنيوية، من صعوبة في أداء دوره كمفكّر ومثقف أداءً مشرّفاً في عالم عاد مسحوراً من جديد، ومفتّتاً إلى هويات مغلقة؛ وحيث جميع أنواع الأصوليات، وليس الدينية فقط، تفرض مُثلها. وما أود الالتزام به، هنا في بيروت، هو مساءلة هذا الضيق، وهذا الانزعاج الخطير، اللذين يشكلان خطراً كبيراً يتهدد واجب الوضوح، أينما كنا، ضمن ما أسماه هو «البؤس العربي»، ولكن أيضاً، داخل أوروبا، أو حتى في الأميركات، للاحتفال بالذكرى السنوية الثالثة لاغتياله، مع التواضع الذي يفرض نفسه على كل من ينظر من بعيد، من دون تعريض شخصه إلى أي مكروه.

Twitter: @ketab_n

لست خبيراً في المصطلحات السياسية، ولن أتدخل، لا من قريب ولا من بعيد، في الشؤون الداخلية للبنان. كان خصوم سمير قصير كثراً، ولم يركز دائماً على الحالات الطارئة ذاتها. وحسبما أعلم سيكون بتراً لذاكرتنا إن أقرنّاه بالقومية العربية التقليدية، أو بالقطب الآخر، الليبرالية على الطريقة الغربية. إن من شأن هذا الاستبعاد المزدوج، أو هذا الانتماء المزدوج، الديمقراطي والقومي، العالمي والوطني، أن يجعله مثالاً. ولهذا السبب سمحت لنفسي أن أوجه له التحية على صورة رسالة بعد وفاته.

«ثمة نزاع كبير دائر في هذا الوقت في جميع أنحاء العالم تستخدم فيه الصور والكلمات والقنابل اليدوية: بين أبطال الحرية الفردية وأبطال كرامة الشعوب. بيننا، نحن الديمقراطيات الليبرالية، الذين نطالب بالحرية للأفراد، والإسلام الذي يرفع راية العدل والإحسان. يسهر القاضي الغربي على ضمان حقوق الفرد، وخيراً يفعل، إلّا أن هذه القضية النبيلة، إنما تتحقق على حساب طموح الفحّام في أن

Twitter: @ketab_n

يكون سيداً في منزله. المتهم الشرقي يناضل ضد حصره في موضع الوصاية، وخيراً يفعل؛ إلّا أنه لن يتردد في محاصرة الأفراد لتحقيق ذلك. أما أنت فسعيت إلى الإمساك بطرفيْ السلسلة. كانت أمك سورية: فعرفت حقوق الفرد. وكان والدك فلسطينياً: فخبرت أيضاً ما خبره شعبك من إذلال... كان الأمر محرجاً؛ ديمقراطيٌّ لا تفوته مناسبة ليتظاهر فيها في سبيل الفلسطينيين، ولكنه كان يحضّر أيضاً ربيع بيروت مع طلابه في جامعة القديس يوسف. كنت تعتبر النضال في سبيل الفرد أولوية، لكن ذلك لم يمنعك من التهجم على «هيمنة الغرب المدمِّرة...».

والمبارزة العنيدة بين مفهومين للحرية، التي تكاد أن تلامس في لبنان، في أية لحظة، الصراع بين الأشقاء، وحيث إن كل معسكر لا تعدمه الأسباب الوجيهة – إنما تعود تلك المبارزة، في تاريخها، إلى ربيع شعوب أوروبا في القرن التاسع عشر، والتي عادت إلى الظهور في أوائل القرن الحادي والعشرين. فهل يجب أن يمر الكفاح ضد

Twitter: @ketab_n

الظلم بالدفاع عن القوميات في مواجهتها للسلطنة، مع خطر الانجراف وراء النزعة القومية، أم بالدفاع عن حق المرء في انتقاد جماعته التي ينتمي إليها مع ما يجرّ ذلك من خطر مدِّ يد العون للحاكم الأجنبي؟

لمن تعطى الأولوية؟ أللحرية على طريقة القدماء أم للحرية على الطريقة الحديثة، حسب قول بنيامين كونستان (Benjamin Constant). أللاستقلال لمصلحة الجميع، أم للمعارضة من أجل مصلحة الـذات؟ في الهوية الثقافية كما صنعها التاريخ، هناك تقاليد أبوية قمعية (الختان، والرقابة، ودونية النساء القانونية، إلخ). فتحت ستار واجب الاستخفاف الذي تدعو إليه الحداثة، هناك دائماً، في الجانب الآخر، ألاعيب سلطانية ممكنة، ذات نزعة انفصالية أو ارتدادية عن الدين، سواء أكان في ظل السلطنة العثمانية أم الإمبراطورية النمساوية-المجرية أم السوفياتية أم الأميركية، ذلك أن المعضلة بين أصالة الجماعة واستقلال الشخص معضلة مستعصية. لقد رفض

Twitter: @ketab_n

سمير قصير الاختيار بين اثنتين، وحارب على جبهتين. شخصيتان في شخصية واحدة، واحدة ناطقة بالفرنسية وأخرى بالعربية. خلاسي، ليس منحازاً إلى جهة بعينها دون أخرى، أو بالحري ساقٌ في كل جانب من جانبي الولاء. باحث وناشط، انفرادي ومتضامن في آن. متذوّق للجمال ومجادل. إنه لقدر المثقف وشرفه بلا ريب، هذا الذي ليس يسيراً إثباته، عنيت عبوديته وعظمته.

Twitter: @ketab_n

دعونا نراجع قليلاً من التاريخ حتى لا نسلّم أمرنا كلياً لسحر كلمة كان لها مجدها في الماضي. كانت صفة المثقف بالفرنسية (Intellectuel) من ابتكار مدير صحيفة، كجزء من معركة ضارية خيضت بسلاح مواد مطبوعة. بالضبط كان ذلك في باريس يوم ١٤ يناير ١٨٩٨، عندما بادر صاحب يومية الفجر، المدعو جورج كليمنصو، النائب، بداية، ثم وزير الداخلية ورئيس المجلس، لاحقاً، إلى نشر بيان سمّي بيان المثقفين: «إن الموقعين أدناه، المحتجين على الأسرار التي أحاطت بقضية استرهازي (Esterhazy)، يستمرون في طلب إعادة النظر في...». هكذا ولد هذا اللفظ الجديد، ولم ترد الصفة في قاموس ليتريه للغة الفرنسية ولا في قاموس لاروس الشامل الكبير لعام ١٨٧٨. بل إنه لا يعود إلّا إلى نهاية القرن التاسع عشر.

Twitter: @ketab_n

وانبثق اللفظ من حرب أهلية كامنة متمثلة بقضية دريفوس (Dreyfus). وتقول تقلبات ولادته الكثير عن المحن التي كانت في انتظاره. وفي الواقع كان كليمنصو قد حوّل إهانة إلى مديح. ذلك أن الثقافوية (Intellectualisme) كلمة عبرت عن الازدراء. فكان يقصد باللفظ، على حد تعبير خصومه، أن التفكير في الأمور يتمّ بطريقة سطحية ولفظية، من خلال فرض أطر جامدة ومصطنعة على أرض الواقع. وكان ذلك يعني أيضاً التضحية بخصوبة الغريزة لحساب قناعات التفكير النقدي الذي يُعدّ قوة كبح وتدمير وكبت. فكما هو بيّن، تفوح من الكلمة رائحة البارود. والسبب وجيه، إذا كان مفكّر ما لا يستطيع التفكير في شيء حسن إلّا تضاداً مع فكرة معارضة، حتى لو كان ذلك ضد فكره بالذات: الأفضل من بينهم يوجهون تفكيرهم ضد أنفسهم.

ونحن نرى أن مدير مجلة لوريان أكسبرس (l'Orient Express) الشهرية الفرانكوفونية يندرج تماماً ضمن خط التقليد الصحيح؛ فسمير قصير مؤرخ إذا ما نظرنا إليه عبر

Twitter: @ketab_n

كتابه المشترك مع فاروق مردم بك بعنوان: رحلات من باريس إلى القدس، وهو كاتب بالنظر إلى كتابه: تاريخ بيروت، ولهذا كله كان أكاديمياً قبل أن يصبح مناضلاً. وما سوف أستحضره هنا يتماشى مباشرة برحابة صدر مع الدروب التي سارت عليها قامات كبيرة. كان زولا فناناً وصحفياً، شأن جيد (Gide) ومورياك وسارتر، أولئك النساك المكافحين الذين توجهوا تارة ككهنة إلى الجميع بلغة مبتذلة، من خلال وسائط الإعلام؛ وكرهبان تارة أخرى، منصرفين إلى تعميق إيمانهم بعيداً عن الأنظار. ذلك أن تاريخ المثقف الحديث والعلماني، له عصره الديني والقروسطي أيضاً، السابق على التاريخ. رجل الدين المدني الذي يدرس في المدينة يختلف عن الراهب النظامي الملتحق في السلك الكهنوتي، والمنصرف إلى العبادة في ديره المنعزل في الريف. والإنسان الذي يتحدث إلى الإنسان ليس هو الإنسان الذي يتحدث إلى الله؛ فالمثقف ينحدر من الكاهن، لا من الراهب. وعلّة وجوده أو دوره الأساس، يقوم على التأثير في رأي عصره. ففي

Twitter: @ketab_n

مشروع التأثير هذا يكمن التمييز، ببعده الصارم، بين المفكِّر والفيلسوف (ذاك الذي يسعى إلى حكم نفسه بعقله) وبين المفكِّر والعالِم (ذاك الباحث الذي يسعى وراء الحقيقة، في الأشياء). في وسع الأستاذ التفكير بصوت عال داخل مدرجه، وبإمكان الشاعر الهذيان بصوت خفيض من غير الاكتراث لوجود جمهور، أما المتعلم الذي ينتفض لظلم لا يطاق، فيجب عليه أن يهزّ مشاعر جيرانه، لذا تراه يؤثِر البيانات وعرائض الاحتجاج. وبالنسبة إلى المحرض فإن المبدع يمثل له ما يمثله الزهد بالنسبة إلى راعي الأبرشية، أو ما يمثله الملحن بالنسبة إلى قائد الفرقة الموسيقية. وعليه فإن الأول يسترشد برسالة، أما الثاني فبوفاء وإخلاص، إلّا أن الصحافة أيضاً في وسعها أن تكون كهنوتاً.

إن ما حثّ عليه عصر التنوير، والذي لا يقتصر على أن يمتلك المرء «جرأة المعرفة» وحسب، ولكن على «جعل العقل شائعاً»، وقد يُجبِره ذلك على المخاطرة. وفي حين يكون الكاتب «المنزوي في غرفته منصرفاً إلى أوراقه»،

Twitter: @ketab_n

آمناً، شأن ديكارت في صومعته، فإن المثقف من ناحيته، لا سيما في الأوقات المضطربة، يخاطر بحياته المهنية وسمعته، لا بل بحياته أحياناً. ومن واجبه التغريد خارج السرب، وبصرامة، بدلاً من السعي لإقناع البرجوازي. تلك هي المخاطر الزمانية التي تواجهها روحانية علمانية معينة.

ها قد انقضى مائة وعشرة أعوام على «القضية» (قضية دريفوس)، وثمة بعض من يتساءل ما إذا كان كليمنصو، النمر، الذي لا يمكن إنكار دوره في إنشاء لبنان، لم يسدِ لنا خدمة سيئة جداً، نحن الفرنسيين، باختراعه صنفاً جديداً مدنياً من رجال الدين، ألا وهم «المثقفون». ألم يكن ذلك، في نهاية المطاف، بمثابة إضفاء للشرعية على طائفة، وسلالة، ورواية؟ أي ما أصبح يعرف لاحقاً باسم اليسار الإلهي[1]؟، كما لو أن الانتماء إلى فئة الإنتليجنسيا يمنح

(١) اليسار الإلهي حركة مثقفين وفنانين يساريين نشأت ونمت في برشلونة بين ستينيات القرن الماضي وسبعينياته.

Twitter: @ketab_n

صك امتياز في الثقافة والذكاء! أن يكون المرء مسيحياً فشأن من شؤون الدولة، أما التصرف كمسيحي، فتلك مسألة تتعلق بالسلوك. لذا فإن الأهم في الأمر ليس أن يكون المرء مثقفاً وإنما أن يسلك سلوك المثقف. الوعي المدني الحاضّ على العصيان ليس حكراً على ورثة محظوظين نصّبوا أنفسهم أو نصّبتهم الأقدار. إن شخصية من قامة شارل ديغول تتصرف تصرف المثقف – عندما اختار، في العام ١٩٤٠، العصيان، وقام بما ينمّ عن خيانة للجيش، المؤسسة التي ينتمي إليها (أو الجنرال ده لابورديير عندما أدان التعذيب خلال حرب الجزائر). وعندما يقوم إنسان كاثوليكي بشجب تراتبيته، أو يواجه مسلمٌ أو يهوديٌ ممثليه الرسميين، أو يناهض طبيبٌ مجلس نقابته، تعتبر كل تلك التصرفات سلوكَ مثقفين. فكما أنه لا وجود لأبطال معتمدين يحملون اللقب (ولكن لأعمال بطولية، من وقت لآخر، وعلى نحو حماسي أحياناً)، بالمقدار ذاته ليس هناك مثقفون مدى الحياة، الأمر الذي يصعب تقبّله. وحتى نكون صريحين، كان علينا، في فرنسا، القيام بإعلان إفلاس

Twitter: @ketab_n

ذاك المخلوق العائد إلى العصر الذهبي – عصر ازدهار الإيديولوجيات والديانات الدنيوية. فبما أن الديمقراطية في فرنسا لم يعد لديها خصوم، ولأن عصر المطبوعة استحال عصر حيّز الفيديو، صار لزاماً على صاحب النفوذ أن يكون تقريباً ممثلاً سينمائياً أو مغنياً، أو ممثلة أو مغنية، حتى يتاح له احتلال مكان الصدارة في المشهد، والاندراج في خط أقوى تيار جارف، شأنه في ذلك شأن أي نجم أو رجل سياسي. في واقع الحال، فقد انتزع عهد الصورة من أهل الأدب والفكر، تلك الأقلية في طبيعتها، ما للروح الجمعية من سلطة أخلاقية لمصلحة أهل الاستعراض. في جانب ما، يولد المثقف المتخصص من رحم الانغلاق التخصصي الخالي من ادعاءات شمولية؛ وفي جانب آخر، تحتاج الحياة السياسية التي اكتسبت بعداً مهنياً، شأن الرياضة، إلى سابِري رأي أكثر منها إلى محطّمي أحلام. فالمسألة أصبحت تصاغ بالنسبة إلى السياسي والعالِم، بعد الآن، وفاقاً للمعادلة القائلة بأن كلاً في منزله وكلاً لنفسه.

Twitter: @ketab_n

ليس ثمة ما يؤكّد أن في الأمر ما يدعو إلى الشكوى، فبعد ذلك كله ليست الدول المحظوظة هي الدولة صاحبة التاريخ. وبالتالي ما الداعي لأن تكون بحاجة إلى مثقفين؟ فالخروج من التاريخ لا يتضمن سيئات وحسب، فحيث يسود حدّ أدنى من إعادة التوزيع في الاقتصاد والحريات العامة والسيادة الوطنية، تضيق الهوة بين وظيفة الشعوذة ووظيفة التنبؤ. إنّ ضمائرنا الشقيّة - من أمثال روسو إلى سارتر- كانوا أبناء مصيبة تاريخية، وأما في عصر ما بعد الصناعة، فباستطاعتنا القول إنّ الغرب بلغ مستوى من السلم والوئام المدني، ومستوى دخل، واحترام للقانون، مبلغاً أصبحت معه الفرص نادرة لإطلاق ثورات غضب. عندما تحلّ المطالبات الفئوية محلّ الرؤية الشاملة، في زمن الالتفاتة الحنونة والمواقف التضامنية، لم يعد لمسبب المصائب مكان في المنتدى، فبات التأثير يقاس تناسبياً مع المكانة المرموقة للأشخاص، والتي تعتمد بدورها على كثافة ظهور كل منهم على الشاشة. وبكل بساطة، لم يعد بمقدور محترف الفكر والثقافة أن ينافس مقدِّم البرنامج

Twitter: @ketab_n

التلفزيوني، والرياضي، والمغني، أللهم إلّا إذا ألقى بنفسه في حفرة وسائط الإعلام؛ حيث إن المثقف النقدي في ظل الأنظمة الديمقراطية التي تعير للرأي شأناً، لا يتمتع بتأثير يذكر على ساحة الرأي يتجاوز تأثير الناقد الفني. فبعد فيكتور هوغو، حلّ في رأس القائمة نيكولا هولو. قاس هو القانون، لكنه القانون.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٢

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إن عصر التنوير، طباعياً، هو الذي شهد، مع ظهور المكتبة وجمعيات الفكر، للمرة الأولى، خروج الكتّاب من مكاتبهم أو أكاديمياتهم وتشكيل قوة تدخل. مما يعني أن الأمر يتعلق بمخلوق شمالي وليس بآخر، بحر أوسطي، ومنتَج لمجتمعات مسيحية سائرة لملاقاة خيبة الأمل. ولذلك فإن ظهوره حداً أدنى من المسافة المعترف بها بين الإيمان والعلم، واللاهوت والفلسفة، والكنيسة والدولة. وحدث هذا الظهور حيث كان هناك تقديم للالتزام المهني على الانتماء الطائفي، وعندما كانت السلطة السياسية على درجة كافية من القوة ومتماهية، إلى حد مقبول، مع المصلحة الوطنية بحيث تتمكن من احتواء وتدجين الطائفية والنزعات الانعزالية، ومنذ اللحظة التي لا يعود

Twitter: @ketab_n

هناك اختلاط بين شأن السماء وشأن الأرض، وحيث الإقصاء لا يعني تعليق المشانق... أو، لنكن أكثر دقة، فنقول: عندما تتحوّل المعتقدات، التي ينبني حولها العيش معاً إلى مجرد آراء. «عدم التعرض لأي كان بسبب آرائه، حتى الدينية منها، شريطة ألّا يتسبب التعبير عنها بالإخلال بالنظام العام»، هذا ما ينص عليه إعلان حقوق الإنسان. إنه تدبير احترازي ممتاز يضمن حرية المعتقد (كالمادة التي تدمج، والمتضمنة في دستورنا الحالي الذي ينص على «عدم التعرض لأي شخص بالإساءة في عمله أو وظيفته بسبب أصوله وآرائه»)، لكن هناك عقبة: الإيمان الديني، في أقوى أوجهه، هو أكثر بكثير من مسألة رأي. فهو، بدلاً من ذلك، اقتناع وانتماء. وهذا ما لم يره التقليد الليبرالي، لأن الاقتناع رأي على حافة الهاوية حيث تتغلب المشاعر على الفكر. إنه ليس متعلقاً بموافقة على قاعدة منطقية، ولكن بلون العالم. إنه تعلّقٌ بأسباب عيش الفرد والمجتمع. نحن في الواقع لا نجرح رأياً بل نناقشه أو ننتقده، بينما نجرح معتقداً لأنه ملتصق بلحمنا. وكما أن المرء لا يفتدي رأياً

Twitter: @ketab_n

بروحه، فإن الخلافات في الرأي تسوى بالاقتراع، وتضارب المصالح بصفقة، أما الحروب الدينية فتحسم بالدم. وكل ما انقضى منذ قرن فولتير المتفائل يذكّرنا بأن الآراء إذا كانت أفكاراً منخفضة التوتر فإن المعتقدات الدينية هي عواطف مشحونة بطاقات عالية. الأرجح أن ماركس لو كان في العام ٢٠٠٨ لتحدث عن الدين كفيتامين الضعيف بدلاً من أفيون الشعب، باعتباره وسيلة الإنقاذ الأخيرة المتبقية بيد المصابين بالمهانة. لذا فإن الانتماء الطائفي لا يقتصر على خيار روحي أو محض ميل خاص، بل هو مادة لاصقة قوية تلتحم بالجلد، والروح، والأسرة. وعليه، فإن عمل المثقف الفكري يقتضي دائماً اجتناب الالتصاق ببيئته. يقول فاليري: «الحمقى يشاطرون الإسفنج ميزة الامتصاص»، وبالفعل كم هي الطوائف الأصلية ماصّة كالإسفنج. والدين سواء أكان ديناً للدولة، كما في زمن فولتير، أم دين أغلبية كما في زمن قضية دريفوس (وقفت الكاثوليكية داعمة على نطاق واسع المعادين لدريفوس) ففي كلتا الحالتين، بالفعل، ثمة انتماءان متأرجحان عديما

Twitter: @ketab_n

الحساسية، يضمان في صفيهما أناساً يكون انتماؤهم جزءاً من العادات، أكثر منه إيماناً، ولا يزال من هم في جهة الانتماء الأُول صالحين للتظاهر بينما نرى أن أصحاب الانتماء الثاني جاهزون بالفعل للتضحية. ولهذا السبب كان أبطالنا الأدباء الفرنسيون، بين العامين ١٨٠٠ و١٩٠٠، مصابين بالخوف أكثر منهم بالألم، وكانوا ملاحقين من المحاكم أكثر مما كانوا معرضين لقنابل تفخخ بها عربات الخيل التي يستقلونها.

وعندما يدعو المقدس نفسه للدخول في النقاش الفكري من مدخل رد الفعل العنيف، ويدخل بقوة الشوارع والمنازل، فبأي حالة يجد الرجل والمرأة اللذان لا يريدان الالتزام بأي مذهب أو طائفة أو عقيدة، نفسيهما (الروائي والمخرج، والصحافي والشاعر)؟؛ في حالة لا يحسدان عليها ولكن، على الأرجح، حالة منتهك الحرمات، الخائن لقومه والحقيقة. وفي أفضل الحالات، حالة الغافل وعديم

Twitter: @ketab_n

المسؤولية. أما في أسوئها، فحالة المرتد الذي تحدوه النيّات الخبيثة والمنحرفة. وينسب إليه ليس التسبب في إزعاج غيره وحسب، ولكن في الإهانة، والكفر، وبالتأكيد جرح معتقدات الآخرين، الذين هم في غالبيتهم أناس شرفاء، وأسر يضجون حياةً، ويشعّون دفئاً، مفعمون بعزة النفس. قد يقال لي إنها لقضية قديمة. حقاً لقد بدأت الفلسفة بالتشكيك الساخر بيقينيات رجل الشارع- يقينيات قوية لكنها ذاتية في المبدأ، ويتعذر تقديم البرهان عليها موضوعياً. ولنقل ببساطة إن مسيرتها بدأت بالدم. دم سقراط، الذي حكم عليه بالإعدام بسبب عقوقه. فما معنى تعليم تلميذ غير تدريبه طويلاً على الترفع عن التزامه بولاءات الأسلاف العائلية والعفوية؟ وأين نضع العلم إذا كان جَرحُ المشاعر الطيبة محرّماً، بما في ذلك مشاعرنا الخاصة التي تفرض على الجميع إغاظةً، أو حتى جرحاً نرجسياً؟ كما فعل، الواحد تلو الآخر، غاليليو، وداروين، وفرويد وسواهم...

Twitter: @ketab_n

إن المنفي في الداخل، عندما ينقل إلى الملأ، كتابة أو بواسطة الصورة، أفكاره الخاصة على مجرى الأمور، فإنه يضع نفسه في موقع يهزأ فيه بجميع السلطات القائمة (الهشة أصلاً، لأنها تعمل إئتمانياً) كما الحشود العاطفية، وحسنة النيّة (لا سيما أنها تدافع عن الخير)، والمقتنعة بحقوقها قناعة صادقة. فهل يُقبل هذا التعدي؟ هل يجدر شجبه؟ نحن، في فرنسا، صنعنا بصدده عقيدة، لا بل اجتهاداً قضائياً. لا أدري إن كان ذلك ينطبق على وضعكم الخاص، ولكنني ألخصها لما تستحق، وتبدو لي أنها تنطبق على جميع أولئك الذين لا تعمي أبصارَهم «حماستهم غير المحدودة للحقيقة» التي يشترك بها جميع ضروب التعصب. نحن نعتبر مداناً كل ضرر معنوي يستند إلى قيد، سواء أكان إلزاماً، على شاكلة ملصق شائن في الطريق العام أو في المترو، ولا يمكن أن لا يشاهد، أم كان حظراً من قبيل منع الرقابة لكتاب أو فيلم. لا أحد ملزماً بدخول دور سينما أو محل لبيع الكتب. إنه عمل طوعي، ولكنمن من المهم إعطاءكل مواطن الفرصة لاختيار ما يعنيه، وأن

Twitter: @ketab_n

يراه أو لا يراه، وأن يقرأ أو لا يقرأ. على سبيل المثال، تلزم العلمانية الفرنسية السلطات العامة بفتح مراكز عبادة أو أماكن للصلاة في كل الحظائرة المغلقة، مثل السجون أو دور إيواء الطلبة، وإلَّا اعتبر خلاف ذلك منعاً للمحتجزين أو للطلاب المؤمنين، بحكم الواقع، من ممارسة شعائر دينهم. هذه هي قاعدة الحذر التي تسود الحياة المشتركة داخل الإقليم الوطني ذاتـه، فيه عدة خطابات وآراء ومعتقدات متضادة. المسألة، في الأساس، مسألة احترام الإنسان أو مجرد مجاملة، ولو أدى ذلك إلى حدوث خرق للبرنامج. يروي مكسيم رودينسون، في مذكراته، عندما كان مدرساً للغة الفرنسية في صيدا، أثناء الحرب العالمية الثانية، أنه أثناء قراءته مسرحية البخيل لموليير، في الصف، كان يتجاوز بعض المقاطع، مثل علامة كليانت، ابن هارباجن: «أيُّ يهودي هذا، وأيُّ عربي؟» حتى لا يجعل الطلاب يشعرون بالدونية.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

۳

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

التسامح المتبادل، هل هو شرط للتعددية؟ نعم، ولكن حذار هذه الكلمة المفرطة في البشاشة حتى تعتبر صادقة. من السهل أن يتسامح المرء في شأن خواء القناعات، فيسهل عليه دائماً أن يتسامح مع ما ليس من شأنه أن يتأثر به كثيراً أو قليلاً؛ فالمجتمعات في نهاية المطاف، من دون طقوس أو عقيدة، يتساوى كل شيء في نظرها، مهما صرحت بأنها تنهى عن التحريم – شعار غير عملي بالطبع – إلَّا أنه يغري اللامبالاة الرخوة والفضفاضة لأولئك الذين لا يثقون بأي شيء، فيجيزون لأنفسهم عدم مساعدة الأشخاص المعرضين للخطر. وحده رفض ما لا يطاق، يعيد بعض الاعتبار لمفهوم التسامح، وكلنا، نحن وأنتم، تعلمنا على نفقتنا أن التشاؤم، بما للكلمة من مدلول قبيح، أو ما

Twitter: @ketab_n

يسميها فولتير «فضيلة الحكمة الحمقاء»، هو الذي يؤدي إلى سقوط كل أنواع الضحايا. على أي حال، فإن التسامح كفضيلة خصوصية، لا تكفي، فهي ليست سوى تنازل، عفوٍ، وبالتالي استنسابي وموقت. والعاهل إذا تسامح يستطيع ألَّا يفعل أيضاً. فهنري ده نافار، الطيب الذكر، الذي أوقف الحروب الدينية بمرسوم نانت المعروف بمرسوم التسامح، قد ألغاه خلفه لويس الرابع عشر في فرنسا، استناداً إلى الشرعية ذاتها. فالمساواة الأخلاقية بين المواطنين، وحرية المعتقد الحقيقية، تفترضان الصفة العالمية للقانون، والانتقال من السلطة كشأن هو من صلاحية الأمير إلى اعتبارها شأناً ينظمه القانون؛ وباختصار الانتقال إلى دولة قوية مناسبة. الدولة الضعيفة تعني سلطان المال، و رجال دين طامعين بسلطة، وتجاوزات مافيوية. لذلك فإن الأخلاق الفردية ليست كافية للتصدي لطوق الأصوليات الخانقة، ولا بد من قاعدة سياسية صرف، قانون واحد يطبق على الجميع.

Twitter: @ketab_n

فلنكن واضحين. لا وجود لعالم يسمح فيه بقول كل شيء، وطباعة كل شيء، وعرض كل شيء، بلا قواعد مقبولة ولا جزاء. فهذا ما يدعو إلى السرور لسرعة ما قد تتحول تلك الفوضى السعيدة إلى تعاسة على نطاق واسع، جراء ما ينتج من قانون الأقوى. الغرب، في غطرسته، يحب أن يلوح بحرية التعبير والصحافة والفكر التي يتمتع بها كشيء مطلق؛ صحيح أنه يُحسد عليها، بالفعل، لكنها ليست غير مشروطة، وهكذا كان منذ البداية. النص التأسيسي لحرية الصحافة في فرنسا، في المادة ١١ من إعلان حقوق الإنسان، يفيد ما يلي: «حرية إيصال الأفكار والآراء واحدة من أثمن حقوق الإنسان. يحق لكل مواطن الكلام، والكتابة، والطباعة بحرية، إلَّا في الحالات التي يحددها القانون». فإذاً ليس مسموحاً إيصال الأمور الفاحشة، القيل والقال، والقذف، والتعرض بالسوء لأي كان بما في ذلك للجماعات الدينية. لقد أُلغي قانون التجديف في بلدنا خلال ثورة عام ١٧٨٩، التي لا تزال تعتبر ثورة فريدة في نوعها في أوروبا (حيث لا يزال هذا

Twitter: @ketab_n

القانون سارياً لكنه غير مطبق، كما في أماكن أخرى في مقاطعة الألزاس واللورين التي لا يزال التشريع الجرماني فيها حاضراً من خلال القانون المحلي). دعونا نتذكر، مرة أخرى، أن مجلس الشيوخ صادق في العام ١٨٢٥، بعد قيام الثورة، على مرسوم ملكي يعاقب السرقة التدنيسية لخبز القربان المقدس المكرس، مثل عقاب قتل الأب أو الأم، بقطع اليد قبل قطع رأس الرهينة، على غرار ما يجري في المملكة العربية السعودية اليوم، إلَّا أن هذا التدبير لم يأخذ طريقه إلى التطبيق. لقد اقترن قانون ٢٩ تموز/ يوليه ١٨٨١، الخاص بحرية الصحافة، بشرط المسؤولية. ويحظر صراحة «الإهانة ضد مجموعة من الأشخاص بسبب انتمائهم إلى دين معين». هناك عدد من التجاوزات وإساءة المعاملة عرضة للعقاب، وخصوصاً التحريض على الكراهية العرقية والدينية. وقد أدخل القاضي الأوروبي، في إطار حماية حقوق الآخرين وحرياتهم، حتى «حق التمتع السلمي بالحرية الدينية». ومن هنا تنشأ نزاعات لا حصر لها حول مسألة أين تنتهي حرية الانتقاد وأين يبدأ

Twitter: @ketab_n

احترام المعتقدات. وقد احتلت بعض هذه النزاعات العناوين الرئيسة للصحف، مثل نشر الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية للنبي (الذي، لم يحكم صاحبها في النهاية، وبعد نقاش طويل، على أنه ارتكب جرماً، ولكن قام بمجرد تصرف غير لائق). معظم هذه القضايا القانونية ترتبط أيضاً باقتصاد السوق الذي لا يبالي باحترام المقدس المكرس، إذ إنه يحوِّل، بكل سرور، أموراً هي موضع تبجيل ديني إلى حوامل إعلانات، طالما أن المجهول المسمى الله يساعد على البيع. في عصر الصورة هذا، وعلى الرغم من عدد قليل من الحالات الشهيرة مثل حالتي سلمان رشدي أو تسليمة نسرين، لم تعد المادة المكتوبة هي التي تخطف الأضواء ولكن الملصق، والصورة أو الرسم أو الفيلم. لقد استدعى فيلم برسيبوليس طلب الحظر في بلدكم، كما استدعى في الأمس باليه لبيجار طلباً مماثلاً. وفي بلداننا، صورة العشاء الأخير لليوناردو دا فينشي، والتي قلدتها المصورة الأميركية رينيه كوكس (عشاء ماما الأخير Mama's last supper)، والإعلان عن سيارة «فولكس فاجن غولف» (١٩٩٦)، أو

Twitter: @ketab_n

إعلان مصممي الأزياء جيربو (Girbaud) (٢٠٠٥)، كانت أيضاً موضع ملاحقة قضائية أمام المحاكم، على غرار ذاك الفيلم لغودار أو سكورسيزي، من قبل جمعيات كاثوليكية أو قريبة من الأسقفية. وجميع الشكاوى لم تواجَه بالرفض. تجدر الملاحظة أن الرقابة في أوروبـا التي مارستها السلطات العامة طوال قرون من الزمن باتت الآن شأناً من صلاحية جمعيات تخضع للقانون الخاص، حيث تظهر الحكومة عموماً بمظهر أكثر ليبرالية من الجهات الأهلية التي لا يمكن، حقيقة، إلَّا أن تبادر بعد حين (عندما تكون الرقابة، بالمعني الدقيق للكلمة، أشارت إلى حظر ذات طابع إداري سابق على على النشر). ثمة تبدل في الأدوار هنا بين الشرطي واللص قد يثير القلق. ومن المغري دائماً أن يوضع المجتمع المدني الطيب في تعارض مع الدولة الشريرة. ويمكن للمرء أن يتساءل، في الواقع، عما إذا كان المجتمع المدني لا يزال ضمانة للكياسة، لكثرة ما تتضاعف سلطات الأمر الواقع وليس السلطات العامة، والضغوط، والابتزازات والتخويفات، الآتية من أسفل

Twitter: @ketab_n

وليس من أعلى. ففي الوقت الذي تستخدِم فيه القبائل المنفلتة من عقالها، كل الأسلحة المتاحة، وتعيش كل منها في قلعة محاصرة، يأخذ المعيار الصحيح اجتماعياً محل المعيار اللائق سياسياً، الشهير جداً، وسنشهد قريباً بعض المخاطر، وأنا أتكلم عن بلدي، من وجود أشخاص، وهم يتناولون كأساً من النبيذ الأبيض في مقصف الحي، وقطعة جبنة في نهاية وجبة الطعام أو يلتهمون قطعة كرواسان في وجبة الإفطار، يقدمون على التعرض اليومي لشخص أسود، وليهودي يرطمونه على لوح الزنك. بل ثمة أرواح شريرة تتساءل تلميحاً، إلى متى ستبقى امرأة بيضاء تساوي امرأتين سوداً. كان برنارد شو يرى بعيداً عندما سأله أحدهم عن رأيه في الحضارة الغربية، فأجاب: «إنها ستكون فكرة جميلة، في الواقع».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٤

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كل شيء يجري كما لو أننا نستورد في المدن الأوروبية، وحتى في الوسط الفكري الخاص بنا، الثقافة المتأصلة في الصحراء، حيث يتم عزل الفرد في عالم عدائي ولا يمكنه بالتالي إلَّا أن يستسلم بسرعة، حيث «الانتماء إلى مجموعة شرط أساسي للبقاء على قيد الحياة» (هنري لورنس)، حيث الدفاع الغريزي عن الشرف يطغى على التفحص الهادئ للوقائع واحترام القانون. إننا لسنا بعد في زمن جريمة الشرف، ولكن زمن إسناد تهمة الخيانة لأي شخص يقوم بفرط صفوف أركان جماعته بدلاً من رصّها. العائلات الروحية القديمة تتصلب متكتلة ضمن كتائب، شاهرة هوائياتها التي تحسبها أطراف رماح، وتعبئ جمهورها بواسطة سجالات لا تنتهي، ويتحلق حولها محامون متخصصون وإعلانيون معتمدون، يتوزع

Twitter: @ketab_n

نشاطهم بين الاستكشاف والحراسة عند الأسوار. كل لديه إذاعته وصحافته وفضائيته وجمهوره الأسير. هنا جماعة ضغط كاثوليكية ترفع دعوى قضائية ضد فيلم آمين لكوستا-غافراس؛ وتلك رابطة إسلامية تسعى لفرض حظر على مسرحية محمد لفولتير؛ وذاك مجلس يمثل مؤسسات يهودية جاء يدعم شكوى أحد المنشقين ضد مراسل تلفزيون-فرنسا في القدس، ذنبه أنه صور العالم كما يجري في الأراضي المحتلة. بعد شرطة الأفكار، ها هي شرطة الواقع. وبات على الإعلام إما أن يكون دعاية وإما السكوت. نعم، هذه الأمور تحدث في فرنسا العلمانية والجمهورية. لبنان في دائرة الاستهداف، لكننا جميعاً في القارب ذاته، «يا أحمق، يا من تعتقد أنني لست أنت...». كان من شأن مونتسكيو أن يهدينا، لو كان في عصرنا، بالتأكيد، رسائل لبنانية بدلاً من رسائل فارسية (حتى لو تقاطعت هذه وتلك في الأخبار)، وتضاف إلى المجموعة رسالة من قبيل كيف تكون لبنانياً ؟ وقد يثير ذلك اهتمامنا أكثر بكثير من الرسالة الشهيرة: كيف تكون فارسياً ؟ بلدكم عبارة عن

Twitter: @ketab_n

فسيفساء أقليات في علاقة توازن هش، ولا يمكن لأي منها أن تحلم باستبعاد أي من الأخريات من مكان الحدث. هذا وبعد القرن العشرين الذي كان عصر الجماهير، سواء أمسكنا به من طرفه الأميركي أم من طرفه الشيوعي، كل شيء يشير إلى أن القرن الحادي والعشرين يفتح أمامنا أبواب قرن الأقليات، وتسير الأمور كما لو كانت بيروت، بمعاقلها وأحيائها الطائفية وجاداتها-الحدود، كذلك الحال ببنوكها ولوحاتها الإعلانية العملاقة، عرضت على روح العصر آخر أكثر واجهاتها بلاغة وإثارة للقلق.

ويبدو أن في أوروبا، بعد زمن المذابح، تغيرت طبيعة بواعث الوجود: الدعوة إلى التضحية التي كانت حاضرة أينما كان بالأمس تحولت إلى حضّ مؤرق على الاستهلاك. إن هذين النوعين من الحوافز لا يتساكنان، ولكن عندكمبدل أن يطرد أحدهما الآخر، نراهما متعايشين تقريباً. إن غرائز التضامن وقيمه، التي نأسف في بعض الأحيان، نحن أبناء شمال البحر الأبيض المتوسط، أننا منحناها إجازة استخفافاً بها، لا تزال تتنافس مرة أخرى، في طرفكم، مع

Twitter: @ketab_n

ردود فعل مقترنة بشكل محكم بموهبة «تدبير الحال»، فتُعلمنا على نفقتنا أنها تقوِّض بدهاء أي مشروع جماعي، أكان أوروبياً أم وطنياً. عندكم، من يدري بأي تدبير متبصّر ومحفوف بالمخاطر، يتربص الشمال والجنوب الواحد منهما بالآخر. يا له من لبنان، مثالي ومتنافر، أقل ابتعاداً عما ألفناه ومما يطيب لنا الظن. إن الفائزين في المغامرة الجميلة وغير المؤكدة التي خاضها عصرنا التنويري هما اثنان لا أحد كان يتوقعهما: الله، والأعمال. قد يتصور المرء أنهما تواعدا أن يلتقيا على أرض فينيقياكم، حيث لم خشي المرء يوماً الابتكار والتجديد، إذا سلمنا بأن الأبجدية المؤلفة من ٢٢ حرفاً، اختراعكم، والتي اشتقت منها جميع الأبجديات الحديثة، كانت تمثّل بالنسبة إلى عصر البرونز ما يمثله الإنترنت بالنسبة إلى عصرنا. في إسرائيل، فقِد جرى توزيع الفضاء. أُسكن الله في القدس والأعمال في تل أبيب. فالبقعة التي يتساكنان فيها تسمى بيروت وهي عاصمة مزدحمة بالسيارات، يتجاور فيها على كل رصيف، جنباً إلى جنب، رجل الدين مع الرجل الهاش الباش، هذا

Twitter: @ketab_n

إن لم يتجاور عند الشخص نفسه، الكتف بالكتف، مستخدم الإنترنت والمتديّن. إن ذلك لمكان عظيم للتعّلم، ننصح به كقدوة لجميع سكان كوكب تلبنن، أياً كانت الظروف، بمقدار ما تعولم بواسطة التكنولوجيا العالية (هاي تك). مكان مناسب للتدرب على أفراح وأخطار تعايش لا مفر منه، ومرير، بين العشائر والقبائل والتقاليد.

مع ذلك، دعونا لا نضل السبيل. لا الله ولا المال يحبان مثيري الشغب. كل له أسبابه: سلطة المال (البلوتوقراطية)، لأنها تحتقر رجال الفكر؛ وسلطة الدين (الثيوقراطية)، لأنها تخشاه. لذلك ليس من السهل على المحتج سلوك طريق متعرج لأنه كلما تلافى خطراً وقع في أشد منه، ولا يفلت مثقف ضفاف نهر السين، والتايمز أو التيبر من صراع الواجبات. ماذا يتبقى للمثقف العالق بين طغيان الشعبية المتأصلة في راتوب السوق (معدلات المشاهدة التلفزيونية، رقم المبيعات، قائمة الفائزين، إلخ) وجنون الارتياب المتزايد الذي يصيب الأقليات، هذا المثقف غير

Twitter: @ketab_n

المنتمي إلى طائفة، المثقف غير العضوي، رجل القطيعة وليس رجل اللُّحمة والذي لا يمكن للإجماع أن يسود يوماً بالنسبة إليه؟ في عالم يكثر فيه الاستبطان المنعزل، حيث تعود الجذور للظهور على السطح، ويميل أكثر فأكثر نحو تحديد هوية الفرد من خلال جماعته العرقية، وحزبه، وحسبه ونسبه، وعائلته، وحيث تلعب الهوية كمبدأ للإقصاء، وحيث كل قبيلة تعتبر نفسها الضحية المحتملة لجارتها، مُهانة ومثلومة، ينخرط الساخط الذي يريد أن يرتفع من الخاص إلى العالمي، من دون التخلي عن هذا أوذاك في معركة مريرة. مصير الوأد ليس بعيداً، أو الأسوأ من ذلك، الشهادة. وهذا ينطبق على سمير، شأن جبران تويني، وجورج حاوي، القائد الشيوعي السابق، ورواد آخريين للمقاومة من مقاومي الحركة الوطنية اللبنانية. لنتذكر أيضاً ضحايا أشكال أخرى من الأصولية، مثال ثيو فان غوغ في أمستردام، وإسحق رابين، في إسرائيل. إن الذي يكسر التوافق مرشحٌ بقوة ليصبح كبش الفداء. لم يعد جرم ذم السلطان موجوداً، فحل محله جرم طعن-

Twitter: @ketab_n

الوحدة، وخصوصاً حيث الحكومة (وما هو فن السياسة إن لم يكن فن تحويل ركام إلى جمع؟) تردّنا إلى تقنية الراعي وليس إلى تقنية النسيج. الراعي يقود القطيع: الأنموذج االساميّ، النبوي، الملكي. الحائك يشابك بصبر السلسلة واللُحمة في النسيج، المتّقدين والمعتدلين الإصلاحيين والمحافظين، المسلمين والمسيحيين، ليصنع منهم قماشاً واحداً، المدينة. وهكذا يستطيع أن يوحد من دون أن يمزج، أن يصهر من دون أن يخلط. هذا هو الأنموذج الإغريقي، طالما أنّ، وفاقاً لأفلاطون، في حواره حول السياسة، هذين النمطان هما الممكنان لتشكيل جماعية: الرعي أو النسج. والأكثر صعوبة، وهذ ما يحزره المرء، هو الوضع الذي يفرد للمستجوِب المحترف في المناطق الحضرية التي لا تزال تتميّز بثقافة المرشد الخاصة بحياة الترحال في البيئة شبه الصحراوية مهجعاً. المسألة، تتحوّل، عندئذٍ إلى الدائرة المربعة: وحيث سيكون المثقف الناشط مفيداً أكثر، فإن الشروط المطلوبة لممارسته هي الأصعب، إذ إن هناك أيضاً تتركز المحرّمات، والرقابة، والرقابة الذاتية، والمنكرات

Twitter: @ketab_n

والكوابح. عندما تقوم وحدة الشعب على قاعدة الانتماء إلى الإسلام – وفي ذهني هنا الجزائر، إلى جانب سواها من البلدان – فإن التحلي بالحس النقدي تجاه الإسلام، هو بلا شك جَرح لحساسية الشعب. ولكن التخلي عن النقد الذاتي نتيجة للتخويف بإشهار ضرورة الامتثال إلى توافق الآراء، هو تحويل للثقافة إلى سياج، والتسبب في إفقار الجسم الاجتماعي بأسره لا بل بخنقه. هذا يعني أيضاً ترك تراث عرضة للتصلب عن طريق تحويله إلى ريع، جراء حرمانه من التبادلات «من بلد إلى بلد، من أمة إلى أمة، من لغة إلى لغة ومن روحانية إلى أخرى»، كتلك التي يدعو إليها شاعركم العظيم صلاح ستيتية، مقتفياً أثر ليفي ستروس، لكثرة ما يتبين أن التنافر لا مفر منه والتقوقع الطائفي خانق للجماعة، عندنا كما عندكم.

Twitter: @ketab_n

۵

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

آن أوان أن نتذكر اسم أميرة فينيقية، أوروبة، اختطفها على شواطئكم زيوس ملك الآلهة الذي تحوّل إلى ثور. هل ثمة ثور عاشق نائم داخل كل إنسان متحضر؟ أم أوروبة احتفظت بطعم الاغتصاب من خاطفها الإلهي؟ الثور لا ينام إلّا بعين واحدة مغمضة... سنكون مخطئين على أي حال، نحن الأحفاد المحظوظين لهذا التزاوج بين الشرق والغرب، إن اعتبرنا أن بإمكاننا أن ننأى بأنفسنا عن المأساة الدائرة في لبنان واعتبارها أمراً غريباً عنا. وأفهم أنكم سئمتم معاملتكم كفئران اختبار، تتحملون وزر فض خلافات الآخرين، ولكن لا يسعني إلَّا أن أفكر أن سمير قصير كان صاحب نظرة سديدة عندما رأى إلى لبنان كمختبر وُجهتُه المستقبل. على غرار جهاز للتقطير تتحضر

Twitter: @ketab_n

بواسطته الصيغة المناسبة التي من المتوقع أن يؤكد من خلالها، حقه في التفكير ذاتياً من دون التخلي عن علاقاته التضامنية العميقة. وهذا ما يطلق عليه، بمفردات الجغرافي، الممر شمال-غرب، القناة الممتدة المتعرجة، ليس بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادئ، ولكن بين هذين الخطرين اللذين قال فاليري إنهما إنهما يتهددان العالم: النظام والفوضى، عبارتان يمكن أن تكونا، في ما يخصنا، الكل الطائفي والكل على طريقة الفردية. ومما لا شك فيه أن هناك جزءاً وهمياً في الفجوة بين الشرق والغرب، ولكن عندما «يستولي وهم على عقول الجماهير»، يصبح «قوة مادية»، حسبما هو معروف منذ ماركس. والدليل، على أي حال، أن المسألة ليست مسألة كتلتين منعزلتين عزلاً تاماً، جوهرين غير متوافقين على الإطلاق، ولكنها متعلقة بلبنان نفسه، حيث كل واحد، إذا جاز التعبير، لديه آخر في منزله، الأمر الذي يعني استباقاً لعالم الغد. فالغرب لا يحتكر العقل، بمقدار ما لا يحتكر الشرق المقدّس.

Twitter: @ketab_n

غير أنه ليس من قبيل تجاوز الحدّ إن عزل المرء بعض السمات الراسخة والمتكررة؛ ففي الغرب، نرى فيضاً في الأنا، ومعانةً في الجمعي. أما في الشرق، فتهيمن عصبية الجماعة، والفرد يعاني. ربما كان مطلوباً لبلدكم المتشابك غرباً وشرقاً، عند تقاطع العالمين، أن يجد توازناً بين كل ما يفرق وكل ما يكتّل. إنها لمهمة تنتظر في كل مكان رجل الثقافة والفكر للاضطلاع بها: مصالحة التشنجات الهوياتية بإزاء مجتمع الفراغ، للحفاظ، هنا وهناك، على حيوياتنا التاريخية - طوائف مسيحية في الشرق، وأقليات مسلمة في الغرب - متحلين بما بالقدر الضروري من متطلبات النأي والعقل البارد، رافعين في وجه الاستتباع، كلمة لا التي يحق للمرء أن يطلبها من صاحب فكر حر جدير بهذا الاسم أينما وجد. وهذه القدرة على عقد طرفي السلسلة المدنية، النحن، والذات-أنا، و«السير بخطى المتوحد مترافقاً مع الآخرين»، كما يقول الشاعر العراقي سعدي يوسف، تمثل التحدي الذي يدعونا إلى التصدي

Twitter: @ketab_n

له متمرد من طينة المرحوم سمير قصير، ولذلك السبب تستحق أن تبقى ذكراه في أوساطنا وخزة ندم وحافزاً، شرقاً وغرباً، من بيروت، وجنوب المتوسط كما في شماله، في مشرق الكوكب نفسه ومغربه، نشترك به جميعاً.

Twitter: @ketab_n

صدر في هذه السلسلة

الإعلام ليس تواصلاً
لدومينيك وولتون

الجماعة ، المجتمع والثقافة
لموريس غودلييه

القبائل في التاريخ وقي مواجهة الدولة
لموريس غودلييه

عندما يبدأ التاريخ
لبرتران بادي

Twitter: @ketab_n

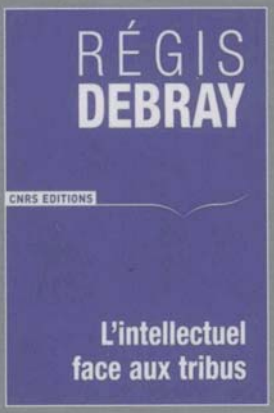

وعندما يدعو المقدس نفسه للدخول في النقاش الفكري من مدخل رد الفعل العنيف، ويدخل الشوارع والمنازل بقوة ، فبأي حالة يجد الرجل والمرأة اللذان لا يريدان الالتزام بأي مذهب أو طائفة أو عقيدة، نفسيهما (الروائي والمخرج، والصحافي والشاعر)؟ إنها في حالة لا يحسدان عليها ولكن، على الأرجح، حالة منتهك الحرمات، الخائن لقومه والحقيقة. قد يقال لي إنها لقضية قديمة، ولنقل، ببساطة، إن مسيرتها بدأت بالدم، دم سقراط، الذي حكم عليه بالإعدام بسبب عقوقه.

المؤلف

ISBN 978-614-432-353-3